





خُصُوصِيَاتُ المَذْهَبِ المَالِكِيّ

تأليف

عبد المجيد بودياب الرهوني

مركز الإمام مالك الإلكتروني



خصوصيات المذهب المالكي

تأليف

عبد المجيد بودياب



ـ **الكتاب** : خصوصيات المذهب المالكي.

ـ **المؤلف** : عبد المجيد بودياب

ـ **التصفيف** : مركز الإمام مالك الإلكتروني.

ـ **الطبعة** : الأولى ـ ٢٠٢٠.



"خصوصيات المذهب المالكي"

عبد المجيد بودياب

الحمد لله أنزل على عبد ه الكتاب، وجعله تبيانا لكل شيء وهدى وذكرى لولي الألباب، وأمرنا بالاعتصام به إذ هو حبله الذي هو أثبت الأسباب، وهدانا به إلى سبيل الهدى ومناهج الصواب ، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له رب الأرباب، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث بجوامع الكلام والحكمة وفصل الخطاب، شهادة قائمة دائمة إلى يوم الحساب.

وبعد، فمنذ أن اختار المغرب مذهب الإمام مالك – على عهد الأدارسة- وهو متمسك به معتمد فقهه في العبادات والمعاملات، في مجال القضاء والإفتاء وقضايا العادات...وظل المغرب مالكي المذهب من عهد الأدارسة إلى اليوم.

والمذهب هو إحدى الدعائم التي بنيت شخصية المغرب وصيغت ذاته وتبلورت هويته وتأسست حضارته وثقافته. وقد ذكر ابن عاشر هذه الدعائم أو الثوابت في منظومته فقال:

في عقد الأشعري وفقه مالك ** وفي طريقة الجنيد السالك

وفي هذا الإطار سأتناول بالدرس والتحليل جانبا مهما من هذا المذهب وموضوعا يعد من أهم المواضع التي تتعلق بمذهبنا الذي نتمذهب به، نظرا لمكانته وقوته وغزارة علمه وكثرة البحوث التي قدمت حوله، سأقدم بدوري

خطــوة متواضــعة في هــذا البحــث المــوجز الــذي ســميته: "خصوصــيات المــذهب المالكي" وسأعتمد فيه على ما يأتي:

١. توطئــــة

٢. المحور الأول :خصائص ترجع إلى شخصية الإمام مالك

٣. المحور الثاني : خصائص ترجع إلى منبث المذهب وهو المدينة المنورة

٤. المحور الثالث: خصائص ترجع إلى المذهب ذاته

٥. خاتمة

والله أسال التوفيق والسداد والهداية والرشاد.

توطـئــة :

إن الله تعالى قد أتم نعمته على المؤمنين وفضله بأن أكمل دينه، وختم أنبياءه ورسله بأرجحهم ميزانا، وأرفعهم مكانا، وأكرمهم أخلاقا، وأطيبهم أعراقا، وأكثرهم أمة وأتباعا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فجاهد في الله جهاده، حيث أزال الغشاوة على العقول فاستنارت، وعن العيون والبصائر فأبصرت، حتى استقام أمر هذا الدين، وسار الناس على المحجة البيضاء، ودخلوا الناس في دين الله أفواجا بسبب ما رأوا فيه من الانعتاق من الأوهام والخرافات، واليسر ورفع الحرج ودفع المهلكات، وما لمسوه في منهج نبيه ورسوله من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فأنجز الله تعالى به وعده وتمت عبادة الناس لله وحده، وخصه الله تعالى بخير أمة أخرجت للناس، فآزروه وساندوه وآووه ونصروه وخلفوه في الصيانة والحيطة والحماية لهذا الدين.

وقد كان من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم أن نص على تفضيل قرنه ثم الذين يلونهم، وتوعد الحق سبحانه من يعادي رسله ويخرج عن إجماع المسلمين بقوله: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١) وأمر بالاقتداء بأمة الخير والصلاح فقال سبحانه: ﴿ وأَّن هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢).

---

١ - النساء/ ١١٥

٢ - الأنبياء /٩٢

ثـم صـارت أمـة الخيـر والصـلاح في كـل قـرن علـى الصـفاء والصـدق والعدالـة، وبـرز منهـا أعـلام علـم ومعرفـة ومعـادن خيـر وهـدى وفضـل، كـانوا منـارات هـدى في الـدنيا والـدين، واختـار مـنهم وبـوأهم الله تعـالى دار وحيـه، ومـنهم حجـة الله علـى خلقـه، وأعلـم أهـل وقتـه، أبـو عبـد الله مالـك بـن أنـس الأصبحي المـدني، وأمـه العاليـة بنـت شـريك الأزديـة، ولـد في المدينـة المنـورة سـنة ثـلاث وتسـعين (٩٣هــ) علـى أشـهر الأقـوال، ونشـأ في بيـت علـم وصـلاح، فـأبوه أنـس كـان عالمـا فقيهـا، وعمـاه: ربيـع ونـافع كانـا عـالمين محـدثين، وجـده مالـك كـان مـن كبـار التـابعين، وجلـة فقهـائهم وعلمـائهم يـروي عـن عمـر بـن الخطـاب، وعثمـان بـن عفـان وطلحـة بـن عبيـد الله، وعائشـة... تـوفي رحمـه الله في خلافـة هـارون الرشـيد (١٧٩هــ ٧٩٥م) ودفـن بـالبقيع (٣).

ولا شـك أن شـهرته طبقـت الآفـاق، وصـار لا يعـرف بـين أهـل العلـم إلا بعـالم المدينـة، وإمـام دار الهجـرة، وهـي فضـيلة مـن جـم الفضـائل التـي خصـه الله تعـالى بهـا، إلـى أن صـارت هـذه المكـاره والمحاسـن والمناقـب تنـد عـن الاسـتعاب، فكتـب المتقـدمون عنـه مـا شـاءوا أن يكتبـوا عـن سـيرته وعلمـه وفضـله، وتـبعهم المعاصـرون في ذلـك واهتمـوا بـإبراز مكانتـه ودرجتـه العلميـة وإمامتـه في التفسـير والحديث والفقه والفتوى، ومدى تأثيره في الحياة العلمية والفكرية والأخلاقية.

ومما شـهد لـه بـه المتقـدمون قـول تلميـذه الشـافعي رحمـه الله " مالـك حجـة الله علـى خلقـه بعـد التـابعين" (٤) وقـول علامـة الجـرح والتعـديل عبـد الـرحمن بـن

٣ - محاضرات في المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص ١٠ و١٨ منشورات عكاظ الرباط -٢٠١١-

٤ - تهذيب التهذيب ١٠/٨

مهدي "ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك ". (٥) وقول الإمام البخاري: "أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر" (٦) وهي المعروفة بسلسلة الذهب.

وقد عرف عن الإمام مالك تمسكه بالسنة إذا كان لا يتركها لرأي احد ولا لمجادلة مجادل، حتى قال: "أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم لجدله ؟" (٧).

وقال فيه ابن المبارك: " لو قيل لي اختر للأمة إماما لاخترت لها مالكا" وقد كان مجلسه مجلس علم ووقار وحلم، لا مراء فيه ولا لغط ولا رفع صوت، وإذا سئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له من أين رأيت هذا ؟ (٨).

وحتى نتمكن من عرض خصائص ومميزات مذهب مالك أرى أنه أجدر بنا أن نتبع التقسيم السابق.

***

٥ - الديباج المذهب: ٢٢/١

٦ - تذكرة الحفاظ: ١ /٧٧.

٧ - سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ١٨٠/٧ ط. دار الحديث القاهرة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦ م.

٨ - ترتيب المدارك (١٣/٢).

المحور الأول: خصائص ترجع إلى الإمام مالك إمام دار المذهب نفسه

وقبل الحديث عن الخصائص لا بد أن نُذَكِّر بالمراد بالمذهب؟

المذهب في الأصل مفعل من الذهاب، وهو لغة الطريق ومكان الذهاب، يقال: ذهب القوم مذاهب شتى أي: ساروا في طرائق مختلفة، وذهب الشخص مذهبه: سار في طريقه، ثم سار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنتاجا واستنباطا.

وعند المتأخرين من أئمة المذاهب، فيطلق على ما به الفتوى، فيقولون المذهب في المسألة كذا من باب إطلاق الشيء على جزئه الأهم، كقوله صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة) لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد. ووجه المناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه أن تلك المسائل تشبه الطريق، ولذا يعبر به عنهما، فيقال: طريق مالك وطريقته، كما يقال: مذهب مالك، ويكون على هذا منقولا عن اسم المكان (٩).

فمذهب مالك إذا هو: مجموع الأقوال والأحكام الفقهية الاجتهادية التي رويت عنه، ومن مصادر فقه إمامنا مالك موطؤه، ومدونة سحنون، وواضحة ابن حبيب، وموازية ابن المواز، وعتبية محمد العتبي، والنوادر والزيادات والرسالة لابن أبي زيد القيرواني.

٩ - محاضرات في المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص ٠٧ منشورات عكاظ الرباط -٢٠١١-

وأما الخصائص التي ترجع للإمام مالك فقد جئت منها بثمان خصائص:

الأولى : أنه تحقق فيه ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أنه يوشك أن يتهافت الناس على طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة، وذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة واللفظ له " (يوشِكُ أَن يَضْرِبَ النَّاسُ أَكبَادَ الإِبلِ يَطلُبُونَ العِلمَ فَلاَ يَجِدُونَ أَحَدًا أَعلَمَ مِن عَالِمِ المَدِينَةِ) (١٠) وقد روي بلفظ (يضربون آباط الإبل). فأجمع الناس من وقته إلى يومنا هذا على أن المراد به مالك بن أنس بدون منازع.

الثانية: ما أتيح له من إدراك الجلة من شيوخه من التابعين الذين كانت تزدهي المدينة المنورة بهم وبعلمهم وفقههم وتحققهم من الدين ومقوماته ومقاصده على باقي الأمصار وعلمائها الكبار، نخص منهم الإمام الزهري، ونافع مولى ابن عمر، وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان، وربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري وابن هرمز وأضرابهم.

الثالثة: نبوغه العلمي المبكر وجلوسه للتدريس والتحديث والإفتاء في الحادية والعشرين من عمره بالحرم النبوي الشريف، فحدث عنه جماعة من شيوخه، وأقبل عليه طلبة العلم من كل الآفاق لا سيما من المغرب وازدحموا عليه في آخر حياته.

١٠ - جامع الترمذي: باب ما جاء في عالم المدينة حديث رقم: ٢٦٨٠(٤/٣٤٤).

الرابعة : إجماع الأكابر من المتقدمين المتأخرين على أن الإمام مالك بن أنس أجل من جاء من التابعين، وأوثق وآمن على علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر تثبتا واحتياطا وأقل رواية عن الضعفاء. (١١).

الخامسة : تميز شخصيته الدينية والعلمية والأخلاقية، وعلو شأنه في العلم بين أهل زمانه قاطبة، فكان إمام المسلمين وأعلمهم بسنة ماضية وباقية، وأمير المؤمنين في الحديث، والعلم بالاختلاف والاتفاق، حتى قال عنه تلميذه الإمام الشافعي ذو العلم الجم : "إذا ذكر العلم فمالك النجم الثاقب" (١٢).

السادسة : أنه أول من صنف في العلم وأجاد التصنيف، ورتب الكتب والأبواب وأحسن الترتيب، وضم الأشكال، وصنع ما اتخذه من جاء بعده قدوة في الكتب والتراجم والتبويب، مع صعوبة الأولية والمبتدأ وحيرة الإبداع والاختراع. كما يعتبر أول من تكلم في غريب الحديث، وشرح منه في موطئه الكثير، وقال الأصمعي: أخبرني مالك أن الاستجمار هو الاستطابة، ولم أسمعه إلا من مالك.

السابعة : أن أول من جمع بين التدريس والبحث والتأليف من خلال كتاب الموطأ، الذي درسه لطبقات الآخذين عنه، وجمع بين الفقه والحديث معا، وظل يتعاهده بالتنقيح والتصحيح حتى آخر حياته، فحذف منه الكثير وأبقى على القليل الذي اطمأنت إليه نفسه، مما دافع الإمام الشافعي إلى القول: " ما في الأرض بعد كتاب الله تعالى كتابا أكثر صوابا من موطأ مالك بن أنس". وفي

١١ - مقدمة السالك في شرح موطأ مالك للقاضي أبي بكر بن العربي (١:٣٣٤) ط. ١ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧ م

١٢ - ترتيب المدارك: (٧٦/١).

رواية "ما رأيت كتابا ألف في العلم أكثر صوابا من موطأ مالك بن أنس" (١٣). وقال أحمد بن حنبل " ما أحسن الموطأ لمن تدين به". وقال ابن عبد البر في التمهيد "كتاب الموطأ لا مثيل له ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله تعالى". وقال ابن العربي في القبس "الموطأ أول كتاب ألف في شرائع الإسلام، وهو آخره، لأنه لم يؤلف مثله، إذ بناه مالك رضي الله عنه على تمهيد الأصول للفروع، ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع إليها مسائله وفروعه...وكان يسميه بكتاب الإسلام". (١٤). والموطأ ثمرة عناية مالك بالسنة والفقه فيها.

وأما صاحب الفكر السامي فيقول عن الموطأ وعناية الخلق به: " هو أول تدوين يعتبر في الحديث والفقه، إذ أقبل الخلق عليه وانتفعوا منه لتحريه في النقل، وانتقاء أحاديثه ورجاله، وفصاحة عبارته، وحسن أسلوبه الذي استحسنه كل من بعده إلى الآن، وهو أول من تكلم في أصول الفقه، وفي الغريب من الحديث، وفسر كثيرا منه في موطئه هذا، ووصل كتابه تواترا إلى الآفاق في حياة مؤلفه" (١٥).

وقد جمع الإمام مالك عددا ضخما من الأحاديث في الموطأ أوصلها بعضهم إلى عشرة آلاف حديث، لكن ما زال يختصرها ويهذبها إلى أن أصبحت لا تتجاوز ألفا وتسعمائة وخمسا وخمسين حديثا على رواية يحيى الليثي، وألفا وثمانية على رواية محمد بن الحسن الشيباني، وهما من أشهر رواة الموطأ. وقد احتوى الموطأ على أحاديث متصلة، ومرسلة، ومنقطعة، وموقوفة، وبلاغات،

---

١٣ - الاستذكار لابن عبد البر(١٢:١) ط .١ دار الكتب العلمية بيروت١٤٢١هـ ٢٠٠١ م

١٤ - القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ص:٦٩.. والعواصم من القواصم ٦٧/٢ تحقيق:د: طالبي.

١٥ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ١-٤٠٦

وأقوال الصحابة والتابعين، وما استنبطه من الأحكام من الفقه المستند إلى العمل أو إلى القياس، أو إلى قواعد الشريعة. (١٦).

ولم يزل العلماء يهتمون به في القديم والحديث والمعاصر، ويخرجون حديثه، ويذكرون متابعاته وشواهده، ويشرحون غريبه، ويضبطون مشكله، ويبحثون عن رجاله. ولذلك قال الإمام الذهبي: " وما زال العلماء قديما وحديثا لهم أتم اعتناء برواية الموطأ ومعرفته وتحصيله" (١٧). وقال القاضي في المدارك لم يعتن بكتاب من كتب العلم والحديث اعتناء الناس (بالموطأ) فممن شرحه:

- ابن عبد البر في " التمهيد" و "الاستذكار".
- وأبو الوليد بن الصفار، وسماه: "المسالك".
- والقاضي أبو عبد الله بن الحاج.
- وأبو الوليد بن العواد.
- وأبو محمد بن السيد البطاليسي النحوي سماه: "المقتبس".
- وأبو القاسم بن الجد الكاتب.
- وأبو الحسن الاشبيلي.
- وابن شراحيل البطليسي.
- والقاضي ابن العربي وسماه: "القبس" وله كتاب آخر سماه ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك.
- وعاصم النحوي.

١٦ - تاريخ المذهب المالكي الجيدي ص: ١٥٦.

١٧ - سير أعلام النبلاء ٧,١٧٢ طبعة دار الحديث القاهرة ٢٠٠٦م

- ويحيى بن مزين، وسماه: "المنتقب".
- ومحمد بن أبي زمنين، وسماه: "المقرب".

وأبو الوليد الباجي، وله ثلاثة شروح: "المنتقى" و "الإيماء"، والاستيفاء".(١٨). وهناك شرح للزرقاني على موطأ الإمام مالك لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١٠٣١هـ)، وتنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) وله إسعاف المبطا برجال الموطأ، وكتاب الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار لحمد سعيد بن أحمد بن زرقون (٥٨٦هـ). والمسوى لولي الله الدهلوي (ت ١١٨٠هـ) وغير ذلك من الشروح الكثيرة والطويلة منها من طبع ومنها من لا زال مخطوطا، ومنها من اندثر وانقطع.

الثامنة : تميزته بتدريب طلبته على مآخذ الفقه وأصوله، التي جعل منها أتباعه لاحقا معالم اهتدوا بها، وقواعد بنوا عليها، قال القاضي عياض: " وغير مالك ممن ذكرنا لم يجمع هذا الجمع، ولا وصل هذا الحد، مع استقلالهم بالفقه ووصفهم بالعلم، ولكن فوق كل ذي علم عليم، هذا مع الثقة التامة، والتقوى وشدة التحري في الحديث والفتيا " (١٩).

١٨ - تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك لجلال الدين السيوطي تحقيق هشام بن محمد الحسني دار الرشاد ص:١١٦.
١٩ - ترتيب المدارك ١/ ص:٨٢.

المحور الثاني: خصائص ترجع إلى منبت المذهب ومكان نشأته

مما لا يغيب عنا ونحن نبحث عن الخصائص، ما للوسط والمحيط بكل ما يروج فيه ويعج، من تأثير في الفكر والتكوين وترسيخ المبادئ وتشكيل الأذواق وصقل المواهب وتقوية الملاحظة ومنزع الفهم والاختيارات، فكلما يعلم أن المدينة المنورة ما كان إليها، كيف وهو الذي أقام صرح العلم بها، وجعل منها منار إشعاع للعلم الإسلامي السمح في العالم، وينبغي أن تبقى في الأمة كذلك، إذ بجهود المصطفى صلى الله عليه وسلم وببركته، تربى أهلها على الإسلام عقيدة وشريعة وخلقا، وفيها طبق منهج الوحي الإلهي قرانا وسنة، ومهده للاقتداء والاهتداء.

كما استنارت المدينة بمن رضي الله عنهم ورضوا عنه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما كانت قبل ذلك تسمى إلا بيثرب، وهو اسم جاهلي مكروه من التثريب الذي هو الفساد، (٢٠) لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم حول اسمها إلى طيبة، وأصبحت بعد ذلك بفضل دخول الإسلام إليها مصدرا للعلم والسنة النبوية، وفي ذلك يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: " إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة" (٢١).

وكان الإمام مالك بحكم الولادة والنشأة في المدينة المنورة من جهة، وبحكم الإنصاف وإدراك منزلة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحبها ويقول إنها

---

٢٠ - التيسير شرح الجامع الصغير للمناوي (٢٤٠/١) مكتبة الإمام الشافعي الرياض ١٤١٨هـ

٢١ - ترتيب المدارك: (٣٨/١).

(محفوفة بالشهداء، وعلى أنقابها ملائكة يحرسونها، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وهي دار الهجرة والسنة، وهي خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختارها الله له بعد وفاته، فجعل بها قبره، وبها روضة من رياض الجنة، ومنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك لشيء من البلاد غيرها) (٢٢).

قال القاضي عياض معلقا على كلام مالك: " وهذا كلام لا يقوله مالك عن نفسه، إذ لا يدرك بالقياس " (٢٣).

وأما الإمام الشافعي: فيرى أن " أن أصول أهل المدينة ليس فيها حيلة من صحتها " (٢٤)، وكان مالك يدرك ما تختص به المدينة من فضل في العلم ولا يرى لأحد مخالفة ما كان عليه الأمر فيها ظاهرا معمولا به، ويشهد لذلك ما كتب به إلى الإمام الليث بن سعد الفهري المصري (ت 175) قرينة في الطلب يستنكر عليه الإفتاء بخلاف ما إجماع أهل المدينة قائلا له: اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلهم إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة بأتباعه، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ (٢٥).

---

٢٢ - ترتيب المدارك :(٣٤،٣٥/١).
٢٣ - ترتيب المدارك : (٣٤،٣٥/١).
٢٤ - ترتيب المدارك : (٤٠/١).
٢٥ - التوبة/ ١٠٠

فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحداثة عهدهم، وان خالفهم مخالف.

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها. (٢٦).

ومن أجل هذه الخصية وهذه المنزلة للمدينة المنورة، لم يذهب أحد من علماء المسمين إلى أن إجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب إتباعها غير المدينة لا إجماع أهل مكة، ولا الشام، ولا العراق، ولا غير ذلك من أمصار المسلمين، (٢٧). ومن تم كانت ينبوع المذهب المالكي، إذ فيها تفجر وفيها انتشر، فكانت المدينة كلها على ما عليه هذا المذهب، ثم خرج منها إلى الجهات والبلدان والأقطار ليعرف توسعا وإقبالا متزايدا بفضل الجلة من تلاميذ مالك السابقين

---

٢٦ - ترتيب المدارك : (٤٣،٤١/١).

٢٧ - مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٩٩/٢٠ وما بعدها) ط. دار المعارف الرباط.

واللاحقين وأتباعهم وتلاميذهم ومن إليهم في كل الأقطار كتب لهذا المذهب الخلود في الناس لخصائصه ومزاياه.

المحور الثالث: خصائص ترجع إلى المذهب ذاته

لقد ترعرع هذا المذهب الفقهي الأثري في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصح مذاهب المدائن الإسلامية شرقا وغربا، في الأصول والفروع (٢٨)، وذلك لقرب العهد بتأثير مقام النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة وخلفائه الراشدين وصحبه الكرام، وقد أدرك مالك رحمه الله الناس سائرين على هذا المذهب، وجرى أمرهم وعملهم وفق ما وفقهم وثبتهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبنى منهجهم في مذهبه وسار عليه واجتهد في ضوئه، ووافقه الكبار من أهل العلم في زمانه، وتبعه الناس في جميع الأقطار واقتدوا به.

وقد اختص هذا المذهب وتميز بخصائص ومميزات نستعرض منها ما يلي :

أولا: اعتماده ما أجمع عليه من العمل بالمدينة على الحديث باعتباره سنة نقلية متواترة، ومن ذلك قول مالك: (وقد كان رجال من أهل العلم من التابعين يحدثون بالأحاديث، وتبلغهم عن غيرهم، فيقولون: ما نجهل هذا، ولكن مضى العمل على غيره) (٢٩).

٢٨ - مجموع الفتاوى (٢٠/٢٩٤).
٢٩ - ترتيب المدارك (١/٤٥).

وهـذا يمثـل لـه بخيـار المجلـس أي مجلـس العقـد الـذي تـم التعاقـد فيـه ومـا زال باقيا، فمالك لا يقول بخيار المجلس بل ينفيه، لأنه وجد عمل أهل المدينة على خلافه، مع أنه يروي الحديث الصحيح في موطئه (وهو البيعان بالخيار ما لم يفترقا). فقد رده لدرء المفسدة وفتح باب النزاع في المعاملات، والحق معه رحمه الله، وسئل ابن الماجشون: لم رويتم الحديث ثم تركتموه ؟ قال: ليعلم أنا على علم تركناه. (٣٠).

وقد أجاد علامة المغرب القاضي عياض في الدفاع عن المذهب في هذا المنحى فمن أراد التوسع فعليه به فهو فريد في بابه. (٣١).

ثانيا – أصالة المذهب وعراقته وطبيعته في التأسيس على السنة والتأسي بها واتباعها دون الافتقار إلى غيرها لوفرتها لديهم.

ثالثا : إنبناء هذا المذهب على أصول عديدة مقررة ومحررة جعلته يعد من أوعب المذاهب الفقهية لمصالح الدنيا والدين، وأوفقها منهجا في التوجيه والاعتماد والانتزاع من الأصول والتوسع في الفروع، وفق ثوابت مرعية وجدها معتبرة عند كبار أهل الشأن من أساتذته وأساتذتهم، فكان مالك يجلي بها الأمور المشتبهة وبين الصواب فيها بفكره الثاقب المستنير، ومسلكه المقتصد المعتدل.

---

٣٠ -.المرجع نفسه

٣١ - ترتيب المدارك (١/٤٥).

رابعا: نجاعة أمهات الأصول التي بني عليها المذهب (٣٢) وهي:

نص الكتاب، وظاهره (وهو العموم)، ودليله (وهو مفهوم المخالفة) ومفهوم الكتاب (وهو مفهوم الموافقة)، وتنبيه الكتاب (وهو التنبيه على العلة)، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (٣٣) فهو تنبيه على علة الحكم.

فهذه خمسة أصول بالنسبة للكتاب يقابلها مثلها بالنسبة للسنة، ثم الباقي وهو الإجماع، والقياس، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، والاستحسان، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ما ينسخه، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف، والاستقراء، والأخذ بالأحوط، ومراعاة الخلاف.

قال العلامة أحمد بن محمد بن أبي كف في منظومته:

أَدِلَّةُ اَلْمَذْهَبِ مَذْهَبِ اَلْأَغَرِّ * مَالِكٍ اَلإِمَامِ سِتَّةَ عَشَرْ
نص اَلكتاب ثم نصّ اَلسُنَّه * سنَّة من له أتمّ المنَّه
وظاهر الكتاب واَلظاهر من * سنة من بالْفضل كلِّه قمن

٣٢ - إن المالكية اختلفوا في عد هذه الأصول، فابن العربي عدها عشرة، والقاضي عياض في "المدارك" لم يذكر منها إلا أربعة، والقرافي في "تنقيح الفصول" أوصلها إلى تسعة عشر أصلا بالاستقراء، والفقيه أبو محمد صالح فقد عدها ستة عشر أصلا، والشاطبي في "الموافقات" ردها إلى ضربين ما يرجع إلى العقل وما يرجع إلى النقل. واختار حسن بن محمد المشاط في "الجواهر الثمينة" أنها سبعة عشر، وقال السبكي في "طبقاته" إنها تزيد على خمسمائة، وزاد عليه أبو العباس الونشريسي فأوصلها إلى سبعمائة، ولعلهما قصدا القواعد الفقهية.

٣٣ - سورة الأنعام ١٤٥.

ثم الدليـــــل من كتـــاب الله * ثـــــم دليـــل سنـــــة الأواه

ومــن أصولــه التي بهـا يقـولْ * تنبيه قرآن وسنة الرســـــولْ

وحجـة لديـه مفهـــــوم الكتــاب* وسنة الهادي إلى نهـج الصـواب

ثُمَّـت تنبيـه كتــاب اللَّـه ثـم * تنبيه سنـة الذي جاهًا عظـــم

هـذا فضـلا عـن القواعـد العامـة المتفرعـة عـن هـذه الأمهـات، التـي أوصـلها العـد إلـى ألـف ومـائتي قاعـدة تغطـي جميـع أبـواب الفقـه ومجالاتـه. (٣٤) ممـا جعلـه مـذهبا قـادرا علـى اسـتيعاب التطـورات ومواكبـة المسـتجدات في مختلـف منـاحي الحيـاة ومجالاتهـا، لـوفرة وسـائله في الاجتهـاد وأدوات الاسـتنباط التـي يضـعها بـين يـدي المجتهـدين فيسـر علـيهم مزاولـة مهمـة الاجتهـاد وإيجـاد الحلـول للنـوازل في كـل عصـر ومصـر. وهــذا الــذي دفـع ابــن تيميــة الحنبلـي يقــول: "...مــن تــدبر أصــول الإســلام، وقواعـــد الشـــريعة وجـــد أصـــول مالـــك وأهـــل المدينـــة أصـــح الأصـــول والقواعد"(٣٥).

خامسـا: توسـع المـذهب توسـعا كبيـرا في اسـتثمار النصـوص وفقـا للأصـول المتفـق عليهـــا، مـــع إدخـــال الاعتبـــارات الأصـــولية الأخـــرى مثـــل مفهـــومي المخالفـــة والموافقة، وتنبيه الخطاب، ودلالة السياق، ودلالة الاقتران، ودلالة التبعية.

سادســا: تميــزه بتنــوع أصــوله الاســتمدادية، وتراوحهــا بــين النقــل الثابــت، والــرأي الصحيح المستمد من الشرع والمستند إليه مثل القياس والاستحسان.

٣٤ - خصائص المذهب المالكي الدكتور محمد التاويل ص: ١٥.
٣٥ - تفضيل مذهب مالك لابن تيمية ص:٣٠.

سابعا: وسطيته واعتداله بمراعاته المزاوجة بين العقل والنقل، والأثر والنظر، دون الجمود على هذا والتمادي وراء ذلك مما بوأه ميزة تميز بها عن مدرسة المحدثين، ومدرسة أهل الرأي واكتسبه القدرة على الانتشار وتزايد إقبال الناس عليه، من ذلك: هل الحج يجب عل الفور أو التراخي، وتوسط مالك واعتدل بالقول انه على التراخي ما لم يبلغ المكلف الستين، فإذا بلغها صار عل الفور.

وبهذا المثال وغيره يتضح أنه وسطي في أحكامه ومواقفه وفي أصوله وفروعه. لا إفراط ولا تفريط ولا غلو تشديد، ولا غرابة ولا شذوذ، ولا جمود ولا تعقيد، ولا تمرد ولا تكفير، يقول بالقياس ويحبذ الأخذ بالرخص، ويكره الأخذ بغريب الأقوال وشواذ الأحكام.

ثامنا: واقعيته في نوازله، فنوازله وفروعه في مختلف الأبواب، موضوعاتها تتراوح بين ما هو واقع وما يمكن وقوعه نادرا، وقد كان مالك رحمه الله إذا سئل عن شيء من ذلك يقول للسائل، سل عما يكون، ودع ما لا يكون، وربما أعرض عن السائل، فإذا ألح عليه السائل في طلب الجواب يقول له: لو سألت عما تنتفع به لأجبتك، وهو في ذلك يأخذ بالحديث (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِك مِنْ عَلِمَ لَا يَنْفَعُ) (٣٦)، وكان إذا سئل عن مسألة لا وجود لها في أرض الواقع أو افتراضية يقول :"دعها حتى تقع".

تاسعا: انفتاحه على غيره وقابليته للأخذ والتوسع من جهة التأصيل للفروع والانتزاع من النصوص، مثل أخذه باعتبار ما حكى القرآن من سياقات عن شرع

٣٦ - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والاستغفار.

من قبلنا، وذلك في استدلاله للجعالة والكفالة من شريعة يوسف بقوله تعالى : ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ (٣٧) وأخذه قسمة المهيأة في المياه من قوله تعالى: ﴿ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ (٣٨) وجواز الإجارة والنكاح على منافع من قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ (٣٩) وعلى جواز الوكالة بقوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ (٤٠).

ومثال آخر ساقه العلامة ابن العربي في الأحكام في تأصيل أحكام القسامة من قول تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ (٤١). قال رحمه الله: "وقد استدل مالك في رواية ابن القاسم وابن وهب عنه على صحة القسامة بقول المقتول دمي عند فلان بهذا، وقال مالك: هذا مما يبين أن قول الميت: دمي عند فلان مقبول ويقسم عليه، فإن قيل: كل هذا آية ومعجزة على يدي موس عليه السلام لبني إسرائيل، قلنا: الآية والمعجزة إنما كانت في إحياء الميت، فلما صار حيا كان كلامه كسائر الآدميين كلهم في القبول والرد، وهذا فن دقيق من العلم لا يتفطن له إلا مالك" (٤٢).

وكل هذا اعتراف من مالك في مذهبه الفقهي بالشرائع السالفة واستعداده للتعايش معها، واستثمار ما جاء فيها لمصلحة المسلمين الدينية والدنيوية،

---

٣٧ - يوسف /٧٢.
٣٨ - الشعراء/ ١٥٥.
٣٩ - القصص/٢٧.
٤٠ - الكهف/١٩
٤١ - البقرة ٧٣
٤٢ - أحكام القرآن لابن العربي المعافري (١/٢٥،٢٤)

ومثل ذلك يقال بالنسبة إليه في جوا الاقتداء بالمخالف في الفروع، ورفضه تكفي المسلمين بالذنب والهوى، حتى سئل عن المعتزلة أكفارهم ؟ فقال: من الكفر فروا، ومن ذلك أخذه بقاعدة حكم الحاكم يرفع الخلاف ما لم يحل حراما، وإن خالف المشهور والراجح في المذهب.

خاتمـــــة

إن المتوصل إليه مما تيسر جمعه وعرضه في هذا البحث من خصوصيات المذهب المالكي، هي أن هذه الخصائص بأقسامها الثلاث كفيلة بأن تؤهل هذا المذهب إلى المزيد من العطاء والاستقرار والاستمرار والانتشار.

وأن المذهب المالكي ليس فقط هو مجموعة من الأحكام التي قال بها مالك، ومضى عليها العلماء من بعدُ متبعين، وَمُخَرِّجِين عليها ومجددين، وإنما هو – فوق ذلك – إرث حضاري، وثقافة اجتماعية، وهوية دينية، وقدرة تأليفية على المستوى النفسي والاجتماعي.

وإن تقيد الناس بمذهب واحد على مستوى قطر أو مجتمع متحضر ومتماسك ومتعاون تقتضيه وتمليه ضرورات متعددة توحيدا للأمة ودفعا للفتنة وأسبابها.

والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى اللهم وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

بعض المصادر والمراجع المعتمدة:

١. أحكام القرآن لابن العربي المعافري دار الكتب العلمية.

٢. إيصال السالك في أصول الإمام مالك، لمحمد يحيى الولاتي تحقيق د. عبد الكريم قبول، ط الثانية دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء – المغرب.

٣. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨م، تحقيق علي عمر.

٤. تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، لجلال الدين السيوطي تحقيق هشام بن محمد الحسني دار الرشاد ط ١ . ٢٠١٠م.

٥. خصائص المذهب المالكي، للعلامة الدكتور محمد التاويل مطبعة انفو– برنت– فاس ٢٠١٤ م.

٦. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون مكتبة الثقافة الدينية.

٧. محاضرات في المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ الرباط –٢٠١١–.

٨. المغرب مالكي لماذا؟ للدكتور محمد الروكي منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية، الطبعة الثالثة ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

٩. مقدمة السالك في شرح موطأ مالك، للقاضي أبي بكر بن العربي ط .١ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧ م.

١٠. ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة بفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة فضالة – المحمدية – المغرب ١٤٤٠هـ ١٩٨٠م.

***